



بإشراف الشيخ أبي الحسن علي الرملي

تفريغ دروس (شرح السنة للبرهاري)

شرح الشيخ (علي الرملي) حفظه الله

المستوى الثاني

الدرس رقم (10)

التاريخ: الأحد 24/ذو الحجة/1440 هـ

25/آب (أغسطس)/2019 م

الدرس العاشر من شرح السنة للبرهاري

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقال المؤلف رحمه الله: ([24] **وَالْإِيمَانُ بَأَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، وَنِيَّةٌ وَإِصَابَةٌ، يَزِيدُ وَيَنْقُصُ؛ يَزِيدُ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَيَنْقُصُ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ**).

يبدأ المؤلف بتقرير عقيدة أهل السنة والجماعة في مسألة الإيمان.

ما هو الإيمان؟

الإيمان في اللغة: هو التصديق.

وأما في الشرع - وهو المقصود هنا-: فهو اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعملٌ بالجوارح؛ هذا تعريفه عند أهل السنة والجماعة، وهم متفقون على هذا، وتعريف الإيمان بما ذكرنا؛ أصل من أصول أهل السنة والجماعة.

بعض السلف يذكر التعريف على النحو الذي ذكرناه، والبعض يختصر؛ فيقول: (قول وعمل)، فيكون مقصوده بالقول والعمل هو ما ذكرناه: اعتقاد القلب ونطق باللسان وعملٌ بالجوارح؛ فالمعنى واحد وإن اختلفت ألفاظ السلف، لكن في النهاية كلها مدارها على معنى واحد.

ويريدون من هذا أن يبينوا أن إيمان العبد لا يصح إلا بثلاثة أجزاء:

- الجزء الأول: الاعتقاد القلبي
- والجزء الثاني: النطق باللسان
- والجزء الثالث: العمل بالجوارح

هل النطق باللسان وحده يكفي؟

قال رسول الله ﷺ: "ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة" ⁽¹⁾، أي: من نطق بلسانه دخل الجنة، لكن هذا النطق وحده لا يكفي؛ لذلك لما ذكر الله سبحانه وتعالى

¹ - أخرجه البخاري (5827)، ومسلم (94).

قوم فرعون قال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾⁽¹⁾ هنا جحدوا بها باللسان، مع أن الإيمان القلبي حاصل؛ إذن فالنطق باللسان لا بد منه، وعمل القلب أيضاً؛ إيمان القلب لا بد منه كذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال في المنافقين: ﴿يَقُولُونَ بِاللِّسَانِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾⁽²⁾، فإيمان المنافقين كان إيماناً بنطقهم وقولهم؛ بظاهرهم، وليس إيماناً قلبياً؛ فكانوا كفاراً وكانوا في الدرك الأسفل من النار.

إذن إيمان فرعون وقومه لم ينفعهم؛ لأنهم كانوا قد استيقنوا في نفوسهم ولكنهم من حيث الظاهر جحدوا واستكبروا على الحق، وإيمان المنافقين لم ينفعهم أيضاً؛ لأنه كان في الظاهر؛ باللسان، لكنه في الباطن كان مفقوداً غير موجود. إذاً لا بد من النطق باللسان والإيمان بالقلب.

والعمل بالجوارح أيضاً لا بد منه؛ فالله سبحانه وتعالى رتب دخول الجنة على العمل، لا يمكن للعبد أن يدخل الجنة إلا بعمل، ولو تأملت جميع الآيات والأحاديث التي وردت في دخول الجنة؛ تجدها كلها قد رتب الله سبحانه وتعالى دخول الجنة فيها على العمل؛ فلا بد من العمل كي يدخل الشخص الجنة، فإن لم يكن عنده عمل إذاً ليس هناك دخول للجنة؛ وهذا الذي تدل عليه الأدلة الشرعية، وبهذا استدل السلف رضي الله عنهم على أن الأعمال لا بد منها أيضاً؛ فأدلة الكتاب وأدلة السنة عندما تذكر الإيمان؛ تذكر العمل.

ومن الأدلة التي تدل على أن العمل من الإيمان قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾⁽³⁾، وقد اتفق المفسرون على أن الإيمان هنا هو الصلاة؛ فسمي العمل إيماناً.

وكذلك قال النبي ﷺ: "الإيمان بضع وسبعون -أو بضع وستون- شعبة، فأفضلها: قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق؛ والحياء شعبة من الإيمان"⁽⁴⁾، فدل ذلك على أن أعمال الجوارح من الإيمان.

وكما ذكرنا: الإيمان عند أهل السنة ثلاثة أجزاء؛ لا يصح إلا بهذه الأجزاء الثلاثة.

¹ - [النمل:14]

² - [الفتح:11]

³ - [البقرة:143]

⁴ - أخرجه البخاري (9)، ومسلم (15) عن أبي هريرة، واللفظ لمسلم

قال المؤلف: (ونية وإصابة)، انظر ماذا يقول المؤلف؟

يقول: (قول) يعني: قول اللسان،

(وعمل) أي: عمل القلب وعمل الجوارح،

(ونية)، أي: النية القلبية،

(وإصابة) يعني: إصابة السنة، هذه ألفاظ السلف- كما ذكرنا- ربما تجدها مختلفة؛ لكن في النهاية هي من حيث المعنى واحدة، يعني: أن الإيمان لا يصح إلا بنية، وإلا بعمل موافق لهدي النبي ﷺ؛ لأن العمل إذا لم يكن موافقاً لهدي النبي ﷺ؛ يكون مردوداً على صاحبه؛ "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد" (1)، فمطلوب منك أن تعمل عبادة طاعة لله سبحانه وتعالى؛ لكن لا بد أن تكون هذه الطاعة على نفس ما كان عليه النبي ﷺ، ولا بد من نية الإخلاص أيضاً؛ ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ (2)، ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ (3)؛ إذاً لا بد من نية الإخلاص؛ كي يُقبل العمل.

قال: (ويزيد بالطاعة)، والدليل على زيادة الإيمان ونقصانه: أن الزيادة وردت في كتاب الله؛

فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ (4)، وقال: ﴿ويزداد الذين آمنوا

إيماناً﴾ (5)، قال: ﴿أيكم زادته هذه إيماناً﴾؛ إلى غير ذلك من الأدلة التي ساقها الإمام البخاري

رحمه الله في كتاب الإيمان (6)، وأي شيء يزيد؛ فهو ينقص.

ومن أحسن الأحاديث التي وردت في بيان أن الإيمان يزيد وينقص حديث: "نافق حنظلة" (7)،

هذا الحديث يدلّ على أن الإيمان يزيد وينقص؛ وذلك أن حنظلة لقي أبا بكر في الطريق؛

فقال: (نافق حنظلة)،

فقال له أبو بكر: (سبحان الله! ما تقول؟)،

1 - أخرجه مسلم (1718)

2 - [الزمر: 2]

3 - [البينة: 5]

4 - [مريم: 76]

5 - [المدثر: 31]

6 - كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصان، قبل الحديث رقم (44)

7 - أخرجه مسلم (2750)

قال: (نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ) أي: تصبح بالنسبة لهم كأنهم يرونها بأعينهم،

قال: (فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا)، قال حنظلة: (فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «وَمَا ذَاكَ؟»

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا؛

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدَوُّمُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةَ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً" ثَلَاثَ مَرَّاتٍ).

فهذا الحديث يدل على أن القلوب تتغير إيماناً؛ فيزيد وينقص.

وكذلك ما جاء من قول النبي ﷺ بأنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان⁽¹⁾؛ يدل ذلك على أن الإيمان يضعف وينقص ويقل.

قال المؤلف: **(وينقص حتى لا يبقى منه شيء)** يعني يبقى الإيمان ينقص؛ حتى لا يبقى منه شيء؛ فيتحول من الإيمان إلى الكفر، فإذا لم يبقَ من الإيمان شيء؛ كفر؛ فخرج من ملة الإسلام، وكان مخلداً في نار جهنم.

وينقص أيضاً حتى يبقى منه الشيء القليل كما تقدم: يخرج من النار من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى حبة خردل من إيمان؛ يعني حتى يبقى معه أصل الإيمان فقط، وهذا يدل على أن الإيمان يزيد وينقص، وكما قال المؤلف: **(وينقص حتى لا يبقى منه شيء)**.

وخالف في هذا الأصل الثابت عند أهل السنة: الخوارج والمرجئة.

¹ - أخرجه البخاري (7510)، ومسلم (193).

• أما الخوارج؛ فإنهم قالوا أصلاً كما قال أهل السنة: الإيمان اعتقاد وقول وعمل؛ لكنهم قالوا: إذا زال بعض العمل؛ زال الإيمان؛ لأن الإيمان عندهم شيء واحد لا يتجزأ، فإذا ذهب بعضه؛ ذهب كله؛ هذا أصلهم الذي بنوا عليه، وبناءً على ذلك؛ يكفرون بالكبائر، فمن وقع في كبيرة؛ فقد ذهب إيمانه.

• أما المرجئة فبعضهم يدخل القول في الإيمان وبعضهم لا يدخله، فمن لا يدخل القول في الإيمان؛ يقول: الإيمان: التصديق فقط، والبعض الذي يدخل القول؛ يقول: التصديق مع القول، وكلهم متفقون على أن أعمال الجوارح ليست من الإيمان؛ هذا قول المرجئة.

والمرجئة يستدلّون بأدلة، والخوارج يستدلّون بأدلة، وكما قال العلماء: إذا أردت أن تردّ على مرجئ؛ فاذكر له أدلة الخوارج، وإذا أردت أن تردّ على خارجي؛ فاذكر له أدلة المرجئة؛ لأن طريقة الجمع بين الأدلة والتوفيق بينها عند أهل السنة والجماعة؛ فإن الأدلة التي يستدلّ بها الخوارج تدل على أن الذنوب والمعاصي هذه تنقص الإيمان ولا تذهبها، والأدلة التي يستدل بها المرجئة تدل على أن من معه أصل الإيمان يخرج من النار ولا يبقى مخلّداً فيها، فأمره يدخل الجنة، لكن الجمع ما بين الأدلة يدل على أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، وأن أصحاب الذنوب والمعاصي هؤلاء إما أن يعفو الله سبحانه وتعالى عنهم بداية أو أن يدخلوا النار، فيعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون؛ هذه عقيدة أهل السنة والجماعة، والباب يطول الكلام فيه، فيكفي هذا القدر في هذا الكتاب.

قال المؤلف رحمه الله: ([25] وأفضل هذه الأمة والأمم كلّها بعد الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان؛ هكذا روي لنا عن ابن عمر؛ قال: (كُنّا نقولُ ورسولُ الله ﷺ بين أظهرنا: إنّ خيرَ هذه النَّاسِ بعدَ رسولِ الله ﷺ: أبو بكر وعمر وعثمان، ويسمّعُ بذلكَ النَّبيُّ ﷺ فلا يُنكرُهُ).

ثم أفضل النَّاسِ بعد هؤلاء: علي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة عامر بن الجراح؛ وكلُّهم يصلحُ للخِلافة.

ثم أفضل الناس بعد هؤلاء: أصحاب رسول الله ﷺ، القرن الأول الذي بُعثَ فيهم: المهاجرون الأولون والأنصار؛ وهم من صلى القبلتين.

ثم أفضل الناس بعد هؤلاء: من صحب رسول الله ﷺ يوماً أو شهراً أو سنةً، أقلَّ أو أكثر، نترحم عليهم، ونذكر فضلهم.

ولا نذكر أحداً منهم إلا بخير؛ لقوله ﷺ: "إذا ذكر أصحابي فأمسكوا"، وقال سفيان بن عيينة: (من نطق في أصحاب رسول الله ﷺ بكلمة؛ فهو صاحب هوى).

خير هذه الأمة وأفضلها وأفضل الأمم كلها بعد الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين هو أبو بكر كما قال المؤلف، وفضائل أبي بكر الصديق كثيرة، وهذا الحديث الذي ذكره المؤلف هو الذي يُستدل به على أن أبا بكر خير هذه الأمة بعد نبيها، وأبو بكر هو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾⁽¹⁾، وأبو بكر هو أحب الرجال إلى النبي ﷺ كما سئل عليه الصلاة والسلام وأجاب بذلك⁽²⁾، ففضائل أبي بكر الصديق كثيرة، والأمة متفقة على أنه خير هذه الأمة بعد نبيها.

ثم يأتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفضائله مشهورة وكثيرة. وبعده عثمان بن عفان ذو النورين، ولُقّب بهذا؛ لأنه تزوج ببنتي النبي ﷺ. ثم يأتي بعد هؤلاء: علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ففي الفضل هم بهذا الترتيب: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً، والحديث الذي ذكره المؤلف هو الحجة في ذلك كما ذكرنا.

قال: (ثم أفضل الناس بعد هؤلاء: علي وطلحة والزبير وسعد وسعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وكلهم يصلح للخلافة)

هؤلاء هم بقية العشرة المبشرين بالجنة، والذين جاء فيهم قول النبي ﷺ: "أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ،

¹ - التوبة [40]

² - أخرجه البخاري (3662)، ومسلم (2384).

وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ بْنُ عَمْرٍو بْنِ نَفِيلٍ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ"⁽¹⁾، هذا الحديث ذكر فيه النبي ﷺ هؤلاء الذين هم العشرة المبشرون بالجنة وهم أفضل أصحاب النبي ﷺ كما ذكرنا، فهم الأفضل بعد أبي بكر وعمر وعثمان، ثم علي بن أبي طالب، ثم البقية الذين ذكروا.

ثم قال: **(وكلهم يصلح للخلافة)**، قال هذا لأن الأربعة الأول قد تولوا الخلافة بموافقة بقية أصحاب النبي ﷺ، فقد اتفق على أنهم أهل للخلافة ويستحقونها، أما البقية فقد ترك أمر الخلافة شورى بين هؤلاء المذكورين هنا؛ إلا القليل منهم فقط، الذين كانوا قد استثنوا من أهل الشورى، فطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وسعيد أيضاً؛ هؤلاء كانوا في أصحاب الشورى الذين فوّض إليهم عمر رضي الله عنه اختيار الخليفة من بعده.

(ثم أفضل الناس بعد هؤلاء: أصحاب رسول الله ﷺ، القرن الأول الذي بعث فيهم: المهاجرون الأولون والأنصار، وهم من صلى القبلتين)،

فأفضل الناس هم أصحاب النبي ﷺ وهم القرن الأول الذين قال فيهم النبي ﷺ: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"، فهذا يدل على فضل أصحاب النبي ﷺ وأنهم مقدّمون على غيرهم.

وفضائل الصحابة كثيرة، منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾⁽²⁾، وكذلك قوله الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾⁽³⁾، وقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ﴾⁽⁴⁾، إلى آخر الآيات.

كل هذه الآيات وغيرها من الآيات تدل على فضيلة أصحاب النبي ﷺ.

¹ - أخرجه أحمد (3/180)، وأبو داود (4649)، والترمذي (3747)، وابن ماجه (133).

² - التوبة [100]

³ - الفتح [18]

⁴ - الحشر [8]

وكذلك الأحاديث؛ منها الحديث الذي ذكرناه، وكذلك قول النبي ﷺ: "لا تسبوا أصحابي؛ فلو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً؛ ما بلغ مدَّ أحدكم ولا نصيفه" (1).

كل هذه النصوص تدل على فضل أصحاب النبي ﷺ وعلى مكانتهم ومكانة المهاجرين والأنصار؛ لذلك قال المؤلف هنا: **(المهاجرون الأولون والأنصار، وهم من صلى القبلتين)**، يعني من صلى إلى بيت المقدس - أي: أدرك الصلاة إلى بيت المقدس قبل أن يُنسخ الحكم - وصلى إلى الكعبة، فهؤلاء هم الصحابة الأول.

ثم قال المؤلف رحمه الله: **(ثم أفضل الناس بعد هؤلاء: من صحب رسول الله ﷺ يوماً أو شهراً أو سنة، أقل أو أكثر، نترحم عليهم ونذكر فضلهم)**.

فاضل المؤلف هنا بين أصحاب النبي ﷺ؛ بين الأول، ثم من جاء بعدهم؛ لأنه قد جاء في الآية قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِل...﴾ (2) إلى آخر الآيات،

فدلت هذه الآية على أن أصحاب النبي ﷺ أنفسهم يتفاوتون؛ خاصة بين من أنفق من قبل فتح مكة، ومن أنفق وقاتل بعدها.

وبعضهم قال إن المقصود بالفتح هنا صلح الحديبية، وعلى كلٍّ: فالذين أنفقوا وقاتلوا بداية أفضل مكانة من الذين أنفقوا وقاتلوا بعد ذلك؛ لذلك يقول المؤلف هنا: **(ثم أفضل الناس**

بعد هؤلاء) أي: بعد الفريق الأول: **(من صحب رسول الله ﷺ يوماً أو شهراً أو سنة، أقل أو أكثر)**، فبمجرد أن تثبت له الرؤية، تثبت له فضيلة الرؤية والصحبة؛ فيدخل في قول النبي ﷺ: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم".

قال: **(نترحم عليهم ونذكر فضلهم)**؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (3)،

فالذين جاؤوا من بعدهم من أهل السنة يترحمون على أصحاب النبي ﷺ، ويذكرون فضلهم وينشرونه بين الناس؛ كي تثبت محبتهم في قلوب الناس.

1 - أخرجه البخاري (3673)، ومسلم (2540).

2 - الحديد [10]

3 - الحشر [10]

قال: (ونكف عن زلهم): لقول النبي ﷺ: "إذا ذكر أصحابي فأمسكوا"⁽¹⁾،

وما من إنسان إلا وله زلة وله خطأ يقع فيه، وقد أمرنا عندما يأتي الأمر عند زلات أصحاب النبي ﷺ وأخطائهم أن نمسك وألا نتكلم، وما شجر بينهم لا نتحدث عنه ولا دخل لنا في الأمر؛ بل نمثل لقول النبي ﷺ: "إذا ذكر أصحابي فأمسكوا".

قال: (ولا نذكر أحداً منهم إلا بخير؛ لقوله ﷺ: "إذا ذكر أصحابي فأمسكوا"، وقال سفيان

بن عيينة: (من نطق في أصحاب رسول الله ﷺ بكلمة فهو صاحب هوى))،

فأصحاب النبي ﷺ هم الطريق إلى شرع الله ودينه، ومن أراد أصحاب النبي ﷺ بسوء؛ فقد أراد أن يهدم دين الله وشرعه؛ لأنهم هم الذين بلّغونا القرآن والسنة، فإذا طعنّا في أصحاب النبي ﷺ الذين هم الشهود الذين شهدوا على صحة دين الله وشرعه، وطعنّا في عدالتهم؛ إذا فقد أفسدنا وضيّعنا دين الله تبارك وتعالى؛ لذلك من تكلم في أصحاب النبي ﷺ؛ فإنما أراد دين الله وشرعه، مع مخالفته وتكذيبه لكتاب الله ولسنة النبي ﷺ؛ فإنه كذب كتاب الله الذي برّاهم وعدّلهم، وردّه، ومع ذلك فهدفه من وراء طعنهم في أصحاب النبي ﷺ: هو هدم شريعة الله تبارك وتعالى، فمن تكلم في أصحاب النبي ﷺ؛ فيتهم على دين الله مباشرة.

ومعاوية رضي الله عنه هو البوّابة التي يحاول أهل الضلال والفساد الدخول إلى أصحاب النبي ﷺ منها؛ فيبدؤون بالطعن في معاوية، ثم بعد ذلك يتدرّجون إلى بقية أصحاب النبي ﷺ؛ لذلك من رأيته يطعن في معاوية بن أبي سفيان؛ فاعلم أنه يريد أصحاب النبي ﷺ؛ ومن يريد أصحاب النبي ﷺ؛ فاعلم أنه يريد دين الله وشرعه؛ هذا هو التسلسل؛ لذلك قال أبو زرعة الرازي رحمه الله - وهو أحد أئمة السلف-؛ قال: (إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب النبي ﷺ؛

فاعلم أنه زنديق)⁽²⁾، وخصوصاً في زمننا هذا؛ لا بد من تطبيق هذه القاعدة بشكل عظيم، وعلى قاعدتها: من انتقص أحداً من أصحاب النبي ﷺ؛ اتهمناه على دين الله؛ ففي زمننا خاصة الفتنة في هذه القضية قد عظمت وكبرت؛ وكلما كبرت الفتنة وعظمت في جانب معيّن؛ كان السلف يشددون فيها أكثر من غيرها؛ للقضاء على الفتنة التي تحصل .

¹ - أخرجه الطبراني (10/ 198) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

² - أخرجه الخطيب في الكفاية (ص49).

قال المؤلف رحمه الله: [26] **وَالسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِلْأُئِمَّةِ فِيمَا يُحِبُّ اللَّهُ وَيَرْضَى.**
وَمَنْ وَلِيَ الْخِلَافَةَ بِإِجْمَاعِ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَرِضَاهُمْ بِهِ؛ فَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ
يَبِيتَ لَيْلَةً وَلَا يَرَى أَنْ لَيْسَ عَلَيْهِ إِمَامٌ؛ بَرَأً كَانَ أَوْ فَاجِرًا).

هذه المسألة من المسائل التي عظم بها البلاء والفتنة في زماننا هذا؛ مسألة السمع والطاعة للأئمة فيما يحب الله ويرضى، يعني أنه يجب علينا أن نسمع وأن نطيع لأئمتنا؛ وهم حكامنا المسلمون، **(فيما يحب الله ويرضى)** أي: في طاعة الله؛ فلا سمع ولا طاعة لهم في معصية الله؛ فإنما الطاعة في المعروف كما قال النبي ﷺ: "لا طاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل"⁽¹⁾، لكن إذا لم يأمر بمعصية؛ فيجب السمع والطاعة.

ولعظم البلاء في هذا الجانب؛ ركّز عليه النبي ﷺ كثيراً، وذكر الكثير من الأحاديث التي تدل على وجوب السمع والطاعة، وعدم جواز الخروج على الحاكم؛ إلا أن نرى منه كفراً بواحاً. لماذا أكثر من هذا؟ بل كانت هذه القضية من أواخر وصاياه ﷺ التي كانت في آخر حياته، فقال عليه الصلاة والسلام- كما في حديث العرياض بن سارية-: "أُوصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ؛ وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ رَأْسُهُ زَبِيبَةٌ"⁽²⁾، هذه من آخر وصايا النبي ﷺ، كان عليه الصلاة والسلام يوصي بهذه الوصايا؛ لعلمه بأن فتنة هذه الأمة ستكون من هذا القبيل؛ من قبل خروجهم على حكامهم، وسيوضع السيف، وكما قال عليه الصلاة والسلام: "لن يرفع إلى قيام الساعة"⁽³⁾.

أول فتنة حصلت في هذه الأمة: فتنة الخروج على عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم تتابعت الفتن بعد ذلك؛ لماذا حصلت الفتنة؟

¹ - أخرجه أحمد (1095) بهذا اللفظ، وأصله في الصحيحين بلفظ: «لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف»، أخرجه البخاري (7257)، ومسلم (1840).

² - أخرجه أحمد (373/28)، وأبو داود (4607)، والترمذي (2676)، وابن ماجه (42). وأخرجه البخاري (7142) من حديث أنس بلفظ: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي، كأن رأسه زبيبة»

³ - أخرجه أحمد (78/37) وأبو داود (4252) وغيرهما.

لأن هؤلاء الذين خرجوا على عثمان ألقوا بأحاديث النبي ﷺ التي فيها السمع والطاعة وعدم الخروج على الحاكم خلف أظهرهم ومشوا مع أهوائهم؛ فخرجوا على عثمان، ثم تتابعت الفتن بعد ذلك، ووضع السيف في هذه الأمة، فلن يُرفع إلى قيام الساعة.

لكن يجب علينا أن نتقيد بما أمرنا به النبي ﷺ، وبما أمرنا به ربنا تبارك وتعالى؛ فالله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾⁽¹⁾، وأولوا الأمر هم العلماء وأمراء المؤمنين والحكام فيهم.

وجاء في حديث عبادة بن الصامت قال: (بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله)؛ هكذا بايعوا النبي ﷺ: ألا ينازعوا الأمر أهله، يعني لا ينازعون ولادة الأمور إذا تولوا عليهم.

قال: (إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان)، كفر بواح: أي: كفر واضح، صريح، لا يختلف فيه علماء السنة؛ لا يختلفون في كون هذا الشيء الذي وقع فيه هذا الشخص كفراً،

(عندكم فيه من الله برهان)؛ عندكم دليل أمام الله سبحانه وتعالى تقدّمونه، يُجَوِّزُ لكم الخروج على هذا الحاكم.

وفي حديث ابن عباس قال النبي ﷺ: "مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُ فَلْيَصْبِرْ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُفَارِقُ الْجَمَاعَةَ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً"⁽²⁾، أي: إلا مات كميته أهل الجاهلية؛ أهل الجاهلية لا يعرفون الأمراء؛ فكل منهم يمشي على رأسه، كل قبيلة وكل جماعة يمشون على رؤوسهم وما عندهم أمراء، فإذا مات الشخص يموت على هذه الطريقة، ومن مات على هذه الطريقة؛ فهو متوعد بالعذاب من الله تبارك وتعالى.

وفي حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: "السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ؛ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ"⁽³⁾.

1 - النساء [59]

2 - أخرجه البخاري (7054)، ومسلم (1849).

3 - أخرجه البخاري (7144)، ومسلم (1839).

وفي حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَانَ رَأْسُهُ زَبِيْبَةً"⁽¹⁾، لاحظ هذه الأوصاف: (إِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ)؛ مع ذلك اسمع وأطع؛ وإن رأيتم أثرة، وإن رأيتم أموراً تنكرونها. لماذا هذا كله؟

هذه كلها تصلح ردوداً على الخوارج وعلى الإخوان المفلسين وعلى غيرهم الذين يقولون نخرج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا أمرٌ قد أخبر النبي ﷺ به: بأنكم ستجدون أشياء منكراً وتجدون مخالقات شرعية؛ بل ربما الحاكم الذي ولي عليكم لا يصلح أن يكون حاكماً من الناحية الشرعية؛ لكن مع ذلك بما أنه مسلم؛ فيجب عليكم أن تسمعوا وأن تطيعوا. هذا الجانب له أدلته الخاصة به، أما أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي وردت في غير هذا الجانب؛ فتلك أدلة عامة تصلح في عمومها- في مواطن العموم لها-، أما هذه الأدلة؛ فهي أدلة خاصة نتعامل بها مع الحاكم المسلم، فإذا جاءت أدلة خاصة في موضع؛ فيجب التقيد بها وترك العام عندئذ في بقية الصور الأخرى.

وأما أن نأخذ بالعام ونترك الخاص؛ فهذا من عمل أهل الأهواء الذين يريدون أن يبرروا لأنفسهم أعمالهم حتى ولو كانت باطلة، هذه الأحاديث كلها مع ما فيها من وَصْفٍ بالأثرة، ووصفِ الأمور التي ننكرها، وما فيها من تَوَلَّى العبد الحبشي، والعبد الحبشي في الشرع لا يجوز له أن يحكم المسلمين؛ لأنه عبد رقيق مملوك، والمملوك لا يتحكم في تصرفاته؛ بل هو مملوكة تصرفاته لسيده؛ فكيف يأمر وينهى ويتحكم في الناس؟ لا يصح مثل هذا أن يكون حاكماً، ومن شرط الحاكم أن يكون حرّاً؛ لكن مع ذلك قال النبي ﷺ: "وإن أمر عليكم عبد حبشي"، فلو وُضِعَ عليكم في مدينتكم هذه حاكم من المسلمين، وكان عبداً حبشياً، فمع أن هذا لا يصح؛ لكن ماذا تفعل؟ اسمع وأطع.

هذا ما أخبر النبي ﷺ، لماذا هذا كله؟ دفعاً للمفسدة الأعظم، هذه التي بُيِّنَتْ لنا وذكرناها مفسد؛ لكنها مقارنة بما سيحصل من نتائج الخروج؛ لا تذكر، هذه المفسدة أمام تلك المفسد العظيمة التي فيها سفك للدماء، وانتهاك للأعراض، وضياع للأموال، إضعاف لشوكة

¹ - تقدم تخريجه.

المسلمين؛ بحيث تجعل دول المسلمين لقمة سائغة في أفواه الكفرة كي يتسلطوا عليها، هذه مفسد كبيرة وعظيمة، فدفعاً لهذه المفسد الكبيرة العظيمة؛ أمر النبي ﷺ بالسمع والطاعة والصبر، فقال عليه السلام: "اصبروا"، وقال: "ستجدون من بعدي أثرة وأموراً تنكرونها" قالوا وما نفعل يا رسول الله؟ قال: "أدوا لهم الحق الذي لهم وسلوا الله سبحانه وتعالى الذي لكم" (1).

وفي حديث آخر قال: "اصبروا حتى تلقوني على الحوض" (2)، مع أنهم قالوا للنبي ﷺ: أفلا نقاتلهم؟ قال: "لا؛ ما صلوا" (3)، وقال في حديث آخر: "لا؛ إلا أن تروا كفراً بواحاً" (4)، أي: أمور واضحة كعين الشمس.

ولا يترك هذه النصوص كلها ويلجأ إلى التلاعب بنصوص الشرع، بل يذهب إلى أحاديث موضوعة ومكذوبة ويخرجها بين الناس، حتى يبرر لنفسه الخروج؛ إلا رجل صاحب هوى قد أكل الهوى قلبه، والأحاديث والأدلة التي تدل على طاعة ولادة الأمور كثيرة جداً، ذكرنا بعضها وهو كافٍ إن شاء الله.

ثم قال: **(ومن ولي الخلافة بإجماع الناس عليه ورضاهم به فهو أمير المؤمنين)**. متى يصح أن يكون أميراً تجب له السمع والطاعة؟ في ثلاث أحوال:

• الحالة الأولى: هي ما ذكرها المؤلف؛ قال: **(من ولي الخلافة بإجماع الناس عليه)**، ولا يفهم بـ **(الناس)** هنا العموم؛ بل **(الناس)** هنا: المقصود بهم أهل الحل والعقد، الذين يحلّون الأمور ويعقدونها؛ هؤلاء هم أهل الحل والعقد، بأيديهم زمام الأمور، يستطيعون حلها ويستطيعون عقدها- هذا معنى أهل الحل والعقد-، والذين هم كقادة الجيش مثلاً، رؤساء العشائر، الوزراء، العلماء؛ أمثال هؤلاء يسمّون أهل حل وعقد؛ لأن لهم كلمة مسموعة عند من يتبعهم ومن يسمع لهم، فعندهم جماعات تتبعهم وتسمع لهم، قائد الجيش عنده أفراد من الجيش يسمعون له، رئيس العشيرة عنده عشيرته تتبعه، العالم عنده الناس الذين يثقون

1 - أخرجه البخاري (7052)، ومسلم (1843).

2 - أخرجه البخاري (4330)، ومسلم (1061).

3 - أخرجه مسلم (1854).

4 - أخرجه البخاري (7056)، ومسلم (1709).

به يتبعونه أيضاً، وهكذا ؛ هؤلاء هم أهل الحل والعقد في البلاد، هؤلاء إذا جمعوا كلمتهم على شخص وعيّنوه؛ يصبح حاكماً للمسلمين، تجب بيعته، ويجب السمع والطاعة له؛ هذه الطريقة هي الطريقة الأولى ، وقد ثبتت بفعل عمر رضي الله عنه؛ حيث إنه ترك الأمر شورى من بعده بين جماعة اختارهم من أصحاب النبي ﷺ.

● الحالة الثانية: استخلاف الحاكم السابق، أي: استخلاف الولي السابق لولي بعده؛ كما فعل أبو بكر الصديق مع عمر بن الخطاب؛ فقد استخلف أبو بكر الصديق عمر من بعده؛ فكان هو الخليفة؛ هذه الصورة الثانية التي يثبت بها ولي أمر المسلمين.

● الحالة الثالثة: هي التغلب على المسلمين؛ يتغلب واحد من المسلمين عليهم ويتسلط عليهم بالقوة، بالسيف، ويستتب له الأمر ويرضخ الناس له ولإمارته؛ عندئذ يصبح أميراً يجب السمع والطاعة له.

هذه الطرق الثلاثة التي تثبت بها الإمارة للمسلم على المسلمين، فيقول المؤلف: **(ومن ولي الخلافة بإجماع الناس عليه ورضاهم به؛ فهو أمير المؤمنين)** وقلنا: الناس هنا المقصود بهم: أهل الحل والعقد.

نكتفي اليوم بهذا القدر والله أعلم.

